نادي القصة بالقاهرة

العزف على قيثارة الجوع

إيهاب غرابة

قصة قصيرة

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم غرب ووسط الدلتا
فرع ثقافة المنوفية

سلسلة - بؤرة
(9)

الطبعة الأولى 2000

لوحة الغلاف للفنانة بثينة الدرديرى

الحرية والصعود والقيود

1

كـــانت المرة الأولى التي أركب فيـها الطائرة .. للمرة الأولى أصعد .. أصعد .. حتى أتحـرر من قيــود الجذب .. يا له من شعور يستحق انسداد أذني واحمرار عيني .. ويا لها من فكرة جريئة .. «الصعود يحرر من القيود».

خلعت قميصي ولبست حذاءاً خاصاً بالتسلق .. واتخذت قراري سأصعد .

2

صعدت فوق البنايات العالية أرصد ما يحدث على الأرض .. أصبت بالدوار .. سقطت .. سقطت في أكبر

بقعة زيت أحاطت بالكون .. ولم أكن الوحيد الذى سقط
بها .. غيرى سقط وغرق .. وغيره قاوم لكنه غاص.. أما
أنا فلقد نجوت بعد أن «تشعلقت» فى إصبع أحد الطيور
المنقـرضــة منذ آلاف السنين .. وألقى بى على حــافــة
الكـون .. وحـتى الآن لم أغـتـسل ولا زال الوحل عـالقـاً
بجـسـدى ينزف التـاريخ قطرة وراء قطرة .. وهـكـذا ..
«دش تاريخ»

3

ترقـبت قطاراً و أنا فى مـحطة «كـفـر المشلتت» ..
أخـذت مـعى زيارة إلى صـديقى المريض .. يرقـد فى
مستشفى باريس العام فى مدينة برلين ولاية إيطاليا فى
مكان يدعى «أوربا المتـحـدة» .. وعندمـا تأخـر القطار
سـألت ناظر المحطة فقال لى : «مفيش مـواصلة للنواحى
دى خدها مشى دى فركة كعب».

و فـعـلاً بل المغــربيــة كنت هناك .. دخلت على

صديقى و معى الزيارة .. «مشلتت بتاع بلدنا وشوية عسل وجبنة قديمة وحتة فرخة تسند قلبه».

منعونى من الدخول عليه ومع إصرارى دخلت وجدته موضوعاً فى «كيس بلاستيك».

نظر إلى ونظرت إليه .. رأيت فى عينيه دموعاً تجاوزتها للعمق فرأيت فيهما فتاة شقراء عارية اختلط دمه بدمها بالدموع بالزيت .. هرولت.

صعدت فوق إحدى البنايات العالية هناك

أصبت بالدوار..

سقطــــــت..

أرسلونى إلى كفر المشلتت فى كيس بلاستيك .

4

هذه النباتات أصبحت غالية هذه الأيام .. ولكنها موجـــودة ... قـيــود زوجــتى و أولادى و عمـــلى .. بل حياتى .. كيف أنتهى من قيودى .. كيف أتجاوز المشاكل المتشابكة .. قديماً كان جدى يشوى «كوز ذره» بالقرب من الساقية القديمة ثم يأكل منه حبة حبه .. وهو يفكر .. ثم يشرب فى يده ماء من «الطرمبة» و بعدها يذهب إلى البيت وتنتهى المشكلة .. كانت حبوب الذرة تحل المشـاكل .. كانـت مزاجـاً! لم تؤثر معى حـبوب الذرة .. لم تمنحنى الحـرية والانطلاق .. عـثـرت على حبوب غيرها تعطى المزاج والحرية والانطلاق .. كانت كل حـبة تجـعلنى أصـعد .. أصـعد لأعلى .. جـعلتنى أصـعد فـوق البنايات العـاليـة أنظر على العـالم بعين «مزغللة» وجسد هزيل مرتعش .

سقطـــــــت..

لم أنزف بقدر ما نزفت زوجتى وأولادى ..

5

كنت دائم الثورة على القيود .. فى التحرر حرية أو فى الحرية تحرر .. بل توجد شعرة بينهما .. قضيت عمرى أبحث عن تلك الشعرة ولم أجدها .. فعندما تبحث عن شعرة لابد أن تتحسس بلطف ولكنى كنت أنشب مخالبى وأثور.. فقط أثور.

وضعت فى كل أركان المنزل مقولتى :

«ليس من العدل أن تخلد الروح فى البدن كما لا يجب أن تخلد العصافير فى الأقفاص»

العصافير؟ .. الأقفاص ؟

أسرعت إلى شرفة منزلى .. أنزلت قفص العصافير من مكانه وأخذته معى .. تسلقت تمثال الحرية ووقفت فوق

مكانه وأخذته معى .. تسلقت تمثال الحرية ووقفت فوق الشعلة التى تحرق القيود .. الناس من كل مكان جاءوا يشاهدون .. قلت بأعلى صوتى مقولتى :

«من العدل ألا تخلد العصافير فى الأقفاص».

ثم أطلقت العصافير فى سماء الحرية .. اهتززت من الفرحة .. سقطت .. وأنا أسقط تذكرت باقى مقولتى ..

«من العدل ألا تخلد الأرواح فى الأبدان».

و قبل أن يصطدم جسدى بالأرض وتصل روحى للسماء وجدت الشعرة وعرفت الفارق بين الحرية والتحرر .

«دش تحرر»! .

سحابة صيف

توقف « الباص »

انتفضت تلك الأجزاء الممتزجة فى قلب تلك المرآة التى اعتاد قلبها منذ سنوات آن يسكن المنطقة الشتائية الباردة قانعاً بشعاع شمس ذابل ..

كانت تجلس على المقعد الأيمن لتلك السيارة الفارهة فى انتظار زوجها.

انتفضت تلك الأجزاء الممتزجة فى عقل تلك المرأة حينما توقف الباص ، فلم تبذل جهداً كبيراً فى استرجاع الماضى كله فى لحظة واحدة عندما خرج من الباص بتلك الرشاقة التى لم تؤثر فيها خمس سنوات من الفراق .. خيط من ضوء الشمس ينطلق صوب شعرها فيعكس فى جسدها دفئاً ساعدها فى السيطرة على أطرافها ومقاومة تلك القشعريرة التى انتابتها..

هل ينتهى الحب إلى تنميل فى الأطراف واحمرار نهاية الآنف!! حاولت أن تتخذ قراراً ، فكل خلايا جسمها تتدافع فى اتجاهه .. تتكوم فوق يده .. فوق صدره .. أمسكت مقبض الباب .. لكن شيئاً ما يحدث فى السماء .. شىء ما يدعوها للتراجع.. رأته يقف عند بائع الجرائد .. تلك الأمتار البسيطة التى تفصل بينهما كانت تعبث بالجرح بلا هوادة .. لازالت عيناها تتابعانه .. تركزان عليه رغم ازدحام الشارع .. يزدحم الشارع أكثر .. فأكثر .. لم تعد تراه بوضوح .. باغتها شعور بأنها قد فقدته مرة أخرى.. أمسكت مقبض الباب.. هذه المرة فتحته وقبل أن تغادر السيارة سمعت صوتاً .. من المقعد الخلفى يقول «رايحه فين يا ماما .. بابا وصل» .

انتفضت تلك الأجزاء الممتزجة فى قلب و عقل تلك المرأة حينما تذكرت ابنتها والسيارة وزوجها الذى ما أن استقل السيارة حتى مد يده لها بزهرة بنفسج.. تحول

وجـهـهـا من الشـحـوب إلى الاحـمـرار وهى ترد على ابتسامته بأخرى أكثر اتساعاً .

أغلقت أبواب السـيـارة .. تحـركت .. نظرت من المرآة الجانبية وهى تضم الزهرة إلى صدرها .. تستنشـقـهـا بعمق .. التقت أعينهم فى المرآة .

... كان الدفء ينصـهـر فى برودة أطرافـهـا حـينمـا أشاحت بمقلتيها بعيداً عن المرآة .



فى تراجيديا أحلام العصافير

فــى ذلك القفص الذهبى المعلق بشرفة المنزل كان ذلك العصفور الرمادى يتذكر كيف تمكن من دخول ذلك القصر الذهبى ليعيش وهو عصفور فقير مع تلك العصفورة الخضراء الجميلة .. كيف كان يقضى اليوم واقفاً على حافة الشرفة ينظر إلى عصفورته الجميلة وهى تغنى فى قفصها المترف .. لكنه يوماً لم يشارك رفاقه فى التقاط ما تسقطه محبوبته من طعام على أرض الشرفة .. تذكر كيف استسلم لتلك اليد الضخمة التى أدخلته إلى قفصها .

و بعد أيام قليلة بدأ يشعر بالضيق .. فمحبوبته لها طبيعة خاصة في كل شيء نومها وأكلها ووقفتها .. حتى فى غنائها .. أحس العصفور الرمادى الصغير أنه

يعيش قيدين .. قيدا فى قفص الحب وقيدا أخر فى ذلك القفص المنزوى فى أحد أركان الشرفة .. لم يعد للطعام مذاق وهو يقدم سهلا .. لم يعد للحياة معنى فى عينيه وهو يراها من زاوية واحدة من خلف القضبان. أقنع العصفور محبوبته الخضراء بأن ينطلقا فى الهواء الرحب .. يلتقطا ما يلتقطاه من الحب .و يناما حيث يتعبان من الطير .. ويغنيان حينما يستيقظان من النوم .. يضربان بأجنحتهم المسافات ليشربان من النهر .. يروحان بحثاً عن الطعام ويغدوان به إلى الصغار .. فالسماء أكثر اتساعاً من القفص .. والطبيعة أجمل من الشرفة .. والحرية مع بندقية الصياد أشرف من انتظار الموت داخل علبة.

أخذا ينقران أحد الثقوب فى أسلاك القفص الجانبية كل يوم .. فكان الثقب يتسع أكثر .. فأكثر .. مرر العصفور الرمادى رأسه وجسده عبر ثقب القفص فوجده مناسباً للهرب .. زقزق مهللاً من الفرحة وهو يوقظ محبوبته ف

يالصباح الباكر.. عبرا سوياً القفص .. ضربا بجناحيهما الهواء فامتلأ صدرهما به وعادت الدماء تجرى فى شرايينهم الصغيرة بحيوية وتدفق .. أخذ العصفور الرمادى يرتفع لأعلى وهو يغنى لعصفورته الخضراء التى تطير وراءه منشداً ..

طيرى معى ..

فالسماء لنا .. والأرض لنا

والنوم فوق الغصن خير لنا

طيرى معى ..

فالأفق يرسم أحلامنا

والزهر يزهو بألواننا .

طيرى معى ..

فالسماء لنا .. والأرض لنا.

كان العصفور الرمادى يرتفع بقوة إلى أعلى وهو يغنى

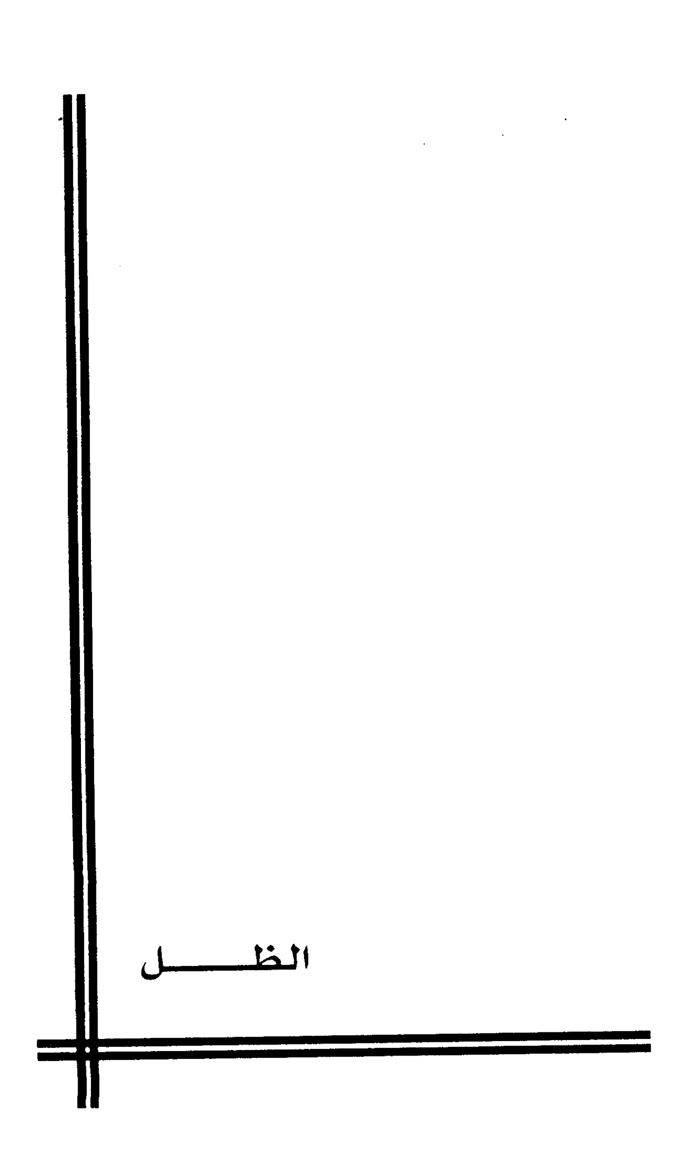
حينما نظر خلفه إلى محبوبته فلم يجدها .. انقبض قلبه الصغير فعاد قليلاً إلى الخلف يبحث عنها ..

وجد عصفورته الخضراء داخل القفص وعشرات العصافير الرمادية تتنافس للدخول إليها عبر ثقب القفص الذهبى .. تذكر العصفور الرمادى وقتها أن العصافير الملونة لا تستطيع الطير إلى مسافات مرتفعة

استدار العصفور الرمادى وهو يضرب الهواء بجناحيه بقوة صوب السماء وراح يغنى ..

السماء لنا .. والأرض لنا

والنوم فوق الغصن خير لنا.


الظـــــل

كـانت اللحظات تمر علىّ بطيئة مريرة وأنا أتفقد أرجاء تلك الزنزانة السوداء فى تلك البدلة الحمراء التى تسلمتها فى السجن ..المكان معتم فيما عدا تلك الأشعة الصفراء الشاحبة التى تتهادى عبر القضبان إلى أرضية الزنزانة تاركة فسحة من الظل على الجدار المقابل جعلت من رأسى شيئاً كبيراً منبعجاً .. بينما كان ظل جسدى هزيلاً نحيفاً كخيط من دخان.. لم أكن أتألم من ذلك الجرح الذى ينهش فى ساقى بقدر ما كنت أتألم من نهش أفكارى .. أقسمت لهم أننى لم أقتل أو أسرق أو أتاجر فى المخدرات .. أقسمت لهم بأننى لست من ذوى التوجهات المعادية سياسياً أو دينياً .. وبأننى لم أفعل شيئاً حتى يسحبوني من رقبتى بملابسى غير المكتملة إلى تلك الزنزانة السوداء.

هكذا أثبتت تحرياتهم أننى أنا من عضه كلب بالأمس فى ساقه ونهش جزءاً منها .. وعندما سألتهم ما ذنبى جاءنى ردهم فى سخرية .. لا تنبح!! وهكذا انتهى التحقيق .. ضوء النهار لا يصلنى فى هذا السجن كأننى داخل علبة صممت لهذا الغرض .. ظللت أصرخ فيهم حتى جاءنى من يخبرنى بأن كل شىء سينتهى فجر هذا اليوم . لا ليل ولا نهار .. ولا أعلم متى سيأتى الفجر!! رحل الجميع ولم يبق سواى أنا والحارس والزنزانة وساقى المجروح وظلى الهزيل .. رحت أصرخ فى الحارس .. ماذا يحدث ؟ ماذا ستفعلون بى؟ كان صامتاً منزوياً بجوار باب الزنزانة ثم نادانى هامساً .. قمت مسرعاً إلى حيث النافذة المقضبنة أعلى الباب .. مد يده لى بجريدة .. كان ظلى قد تضخم ليملأ الزنزانة بأكملها وأنا أقرأ بالجريدة أن كلب الوالى مات مساء الأمس متسمماً من لحمة فاسدة.

رحلة العودة

توقف القطار فجأة فى إحدى المحطات وطال توقفه مما استرعى انتباهى .

بدأ الركاب ينزلون الواحد تلو الآخر حتى بقيت أنا والقليل من الركاب .. دفعنى الإحساس بالملل إلى النزول من القطار الذى ركبته بلا هدف .. وبينما كنت أهذب ملابسى و أبعد التصاق القميص عن ظهرى استدرت بلهفة إلى القطار الذى شعرت أننى قد نسيت فيه شيئاً هاماً لكننى لا أعرفه .. سرت قشعريرة فى جسدى عندما لم أجد القطار ورائى .. ذلك القطار الذى له صوت يوقظ الموتى فى القبور تحرك دون أن أشعر به أو أسمع له صوتاً.

لا أعرف ما الذى دفعنى لأن أشعر بأنها كانت مكيدة قد دبرت ضدى وإلا فما الذى دفع القطار للتوقف هنا طويلاً ثم يختفى بعد نزولى آخذاً معه ذلك الشىء الذى افتقدته .. ثم هؤلاء الركاب الذين غرروا بى ونزلوا قبلى هل هم أيضًا .. كان فى حياتى من الفرا غ ما يجعلنى

راغباً فى استكشاف تلك القرية .. نزلت من المحطة وتجولت فى المكان .. لا أرى أحداً .. غير أننى كنت أسمع أصواتاً هامسة كالفحيح.. أحسست بالوحشة ووقفت يائساً أركن ظهرى على أحد الجدران التى لها ظل يذكرنى بظلال قريتى .. أرهقت قدماى فبدأ ظهرى ينزلج لأسفل الجدار حتى جلست وركبتاى أمام رأسى فملت برأسى عليهما .. أغمضت عينى برهة لأفتحهما بعد أن شعرت أن ضوء السماء قد حجب عنى .. رفعت رأسى ببطء وكانت المفاجأة .. مئات من الأقزام التفوا حولى .. كدت أموت من الرعب والعجب .. حيث ما هى إلا ثوان قليلة وبدأوا يتشاجرون من أجلى وكأنهم من أكلى لحوم البشر .. لم أكن أفهم تماماً كل ما يقولونه .. لكننى فهمت منهم أننى سأختار مع من سأعيش منهم..

كان الاختيار صعباً .. فكلهم أقزام أجساماً وعقولاً .. لاأعرف كيف مرت الأيام علىَّ و أنا معهم .. أصبحت واحداً منهم .. أعرف لغتهم .. أمارس عاداتهم التى كنت أستقبحها .. اندمجت بينهم حتى أصبحت الأقرب لكل واحد منهم .. عرفت جماعاتهم فيما بينهم .. عرفت

صراعاتهم .. عرفت عنهم كل شىء إلا شيئاً واحداً كنت دائماً أخشى سؤالهم عنه إلى أن مات زعيمهم فوجدتهم قد ولونى قائداً عليهم .. والغريب أننى لم أسعد بذلك .. فما معنى أن أكون أطول الأقزام أو قائداً لمجموعة من التافهين أو زعيماً لحفنة من الأشرار!!

وقتها سألتهم ما الذى جعلكم وأنتم مجموعة من الأقزام تنعزلون عن المجتمع وتتجمعون هنا؟ .. ضحكوا جميعاً .. ظنونى أمازحهم .. أعدت السؤال غاضباً .. فتوقف الجميع عن الضحك ونظروا إلىَّ فى تعجب وأجابنى أحدهم ساخراً .. نحن أقزام؟ كيف؟ ثم إنك مثلنا تماماً .. ثم عادوا جميعاً للضحك ..

تركتهم وهرعت إلى السوق أشترى مرآه .. وعندما وقفت أمامها كانت المفاجأة اللعينة .. لقد أصبحت قزمًا أنا الآخر .. لم أشعر بنفسى إلا وأنا أهرول فى اتجاه محطة القطار .. فلقد انقلبت اللعبة إلى جد وتحول الخيال إلى واقع مؤلم .. واكتملت المأساة عندما قرأت في المحطة لافتة مكتوب عليها :

«إن القطارات هنا تحضر ركاباً و لا تأخذ ركاباً .. تأتى تختفى» .

.. جلست تحت اللافتة وقد أغرقت عيناى الدموع فلقد عــرفت أن رحلة الذهاب بلا هدف أصــعب من رحلة العودة بهدف .. وضعت رأسى بين ركبتى مرة أخرى وأخذت أفكر فى هذا الشىء الذى نسيته فى القطار .. لا أستطيع أن أذكره .. لكننى تذكرت شيئاً واحداً هو أننى لم أفقده مرة واحدة بل فقدته جزءاً جزءاً .. وجاءتنى فكرة وكنت أعلم كم هي صعبة التنفيذ لكننى كنت قد اتخذت قرارى .. سأمشى فوق قضبان القطار في الاتجاه الذى أتى بى منه لعلى أصل حيث كنت .. لعلى ألملم تلك الأجزاء المفقودة .. بدأت أمشى .. ورأيت ورائى قليلاً ممن نزلوا معى من نفس القطار .. رأيتهم يمشون خلفى وإلى جوارى .. آه لقد غرر بهم القطار مثلى .. واحزناه على ما بقى من الأقزام البلهاء .. وها نحن نسير نلملم ما فقدناه فى الطريق .. وكلما وجدنا شيئاً ازداد طولنا وانتصبت قامتنا أكثر وأكثر ..

وما زلنا نمشى .. نمشى .. و نقترب.

الحلوى

أوصدت بإحكام زجاج النافذة التى قضت بجوارها الليل كله .. الغرفة مظلمة والقمر محاق والغيوم تتباعد فى السماء كأنما تفسح الطريق لشىء ما سيمرق ..

انزوت على جزء ضئيل من سريرها .. لازال الشعور بالبرد يتملك جسدها الهزيل .. امتدت أصابعها المرتعشة لتلتقط الشال .. وضعته فوق كتفيها .. انتابتها نوبة من السعال.. مالت برأسها إلى الحائط مستسلمة للذكريات .. عندما ظهرت أولى خصلات شعرها الأبيض غيرت المرآة .. قامت تمزق بدلتها القديمة المفضضة .. مزقت معها باقى الذكريات .. الانحناءات .. وغمزات وهمسات وأنفاس الرجال .. ضحكاتها الأولى وابتساماتها الأخيرة المرتعشة .

لم تنم تلك الليلة إلا القليل ..

قامت تصلى الفروض الخمس فى وقت واحد قبل شروق الشمس . . أدارت مؤشر المذياع على صوت ترتيل كادت تنساه .. ارتدت الأسود وخرجت إلى الشارع .. اشترت بكل ما معها حوى .. جلست فى منتصف حديقة الأطفال .. راحت توزع عليهم الحلوى .. جلست فى منتصف حديقة للأطفال .. راحت توزع عليهم الحلوى ثم وضعت الأخيرة فى فمها .. نظرت إلى إحدى الصغيرات والحلوى مكورة فى فمها .. مالت برأسها إلى كتفها مبتسمة .. نظرت الصغيرة إليها ترد الابتسامة ثم استدارت تعدو فى اتجاه آخر..

كانت الغيوم تتباعد فى السماء وارت شعاع الشمس قليلاً .. ثم عادت السحب للمسير والشمس للإشراق .

اللص

أخذ صوته الخبيث يحاول أن يجتث من أنوثتها ما يستطيع .. لم تستطع أسلاك التليفون أن تضعف من قدرته على إثارة غرائزها.. صوته الهامس .. نبراته المتقطعة أحياناً والحادة أحياناً .. يعرف تماماً أنها تدغدغ أذانها بما يشبه وسوسة الشيطان .. كان يعرف أيضًا أن للشيطان علاقة ما بالمرآة ، علمته الأيام كيف يمكنه استغلال هذه العلاقة .. دون أن يرهق نفسه في معرفة أسبابها .. لكنه في كثير من الأحيان ما كان يشعر أنه يستطيع أن يوسوس للشيطان نفسه .. أمسك بيدها قبلها على جبينها .. على وجنتيها .. على شفتيها .. التهم أنفاسها الساخنة التى كانت تتزايد شيئاً فشيئاً .. ساعدها على خلع ملابسها قطعة قطعة .. اطمئن لعريها تماماً .. كان يخشى دائماً فى مثل تلك

اللحظة أن يداهمه الأذان فهو وقتها لا يستطيع أن يكمل .. لكن هذا لن يحدث فالساعة دائماً تتجاوز الثانية صباحاً وكل شيء هادىء حتى قبلاته التى راح ينثرها على جسدها قبلة قبلة .. كانت تستنفر أنفاسها بقوة .. تعلو .. تعلو مع ارتفاع صدرها .. يأتى صوتها كالفحيح وهى ترجوه أن يتوقف .. إحساسه لا يكذبه هى تطلب التوقف لكنها ترغب المزيد .. انتهت عنده اللحظة .. توقف .. شعر بالاسترخاء .. بينما كانت أنفاسها لازالت تتصاعد ساخنة .. أصبح اشتياقه لإنهاء المكالمة أكثر مما استشعر من لذة .. اجتاحته رغبة عارمة فى النوم .. تثاءب . .انتابته قشعريرة فى جسده وهو يتمدد . . حاول اقناعها بأن تنهى المكالمة لكنها لم ترغب .. امتدت يده إلى سلك تليفون انتزعه .. انتابته نوبة هرش فى رأسه وصدره .. أشعل سيجارته الأخيرة ثم نام. خطيب المسجد فى اليوم التالى يدعو .. اللهم .. اللهم ، الكل وراءه يردد آمين .. آمين .. نحن جميعاً مخلصون . كان

يجلس فى الصف الأخير وسط الصبية والأطفال وتحت الشمس ينفض ذرات الرمل العالقة بجبينه عقب كل سجود .. ما بين السجدة والسجدة يتذكر أن تلك الذرات كانت عالقة بأقدام المصلين قبل أن تعلق بجبهته .. رجع من شروده على .. الله أكبر ثم الركوع .. يتذكر كالصاعقة أنه بين أيادى الله .. يقسم أن يصفو ذهنه وألا يعود لشروده وسخفه .. أخذ يفكر فى شروده وسخفه .. الإمام يقول الله أكبر الأخيرة فى الصلاة .. ينفض الرمل عن جبينه يتهادى فى رأسه صوت الفتاة .. يهرش فى قفاه ثم ينتزع سلك التليفون من رأسه .. يرفع سبابة يمناه كما يفعل من يجاوره .. الجمع يحرك رأسه يميناً ويساراً يفعل مثلهم ثم يسلم على من يجاوره ويعود أدراجاً للبيت .. يستخرج أوراقه وقلمه .. تنعقد النية بين أصابعه أن تكتب شعراً .. أن يكمل قصيدة الأمس .. ينفلت القلم على الورقة ليكتب قصة .. خرجت كلماته ممطوطة .. مترهلة .. عارية .. كانت تضع وصفاً

لفتاة الأمس .. لم ينصفه الخيال فى أن يضعها فى الشكل الأمثل .. صوت الأذان يعلو من جديد .. استقبح ما فعل وما ينوى أن يفعل .. قام يصلى العصر ثم المغرب ثم العشاء .. أقسم ألا يتحدث معها ثانية .. من لم تنهه صلاته عن ..

ازداد الليل سواداً فى الظلمة .. التهب شعور الشيطان بضوء لقمر النافذ عبر الشرفة الخلفية .. جلس يجرب أول أبيات قصيدته فى صوت هامس :

الحب بلا جسد يأويه   كالطفل بلا أم تحميه

أخذ يعيد ويكرر .. يحذف ويعدل .. قطع عليه خياله رنين التليفون .. امتدت يده مرتعشة تنقب عن سماعة التليفون فى الظلام .. التقطها .. جاء الصوت لفتاة أخرى تحب أيضًا أن تسرق الخبز أنفاسها الدافئة .. شيطانها الماكر لا يأتيه النوم قبل أن يوقظ شياطين الرجال.. لم يبذل جهداً معها فهى غير فتاة الأمس .. وغير فتاة قبل الأمس .. لم تعد لحظات النصر تضيف

الكثير إلى رجولته .. سريعاً ما يتثاءب ثم يتمدد بجسده .. صوت قرآن الفجر يملأ المكان .. لم يستأذن فى إنهاء المكالمة .. انتزع السلك ثم توضأ .. خرج من بيته .. أحكم إغلاق البوابة السفلية للمنزل .. راح يمشى فى خمول .. وهو يتمتم قائلاً : أن تسرق رغيفاً فأنت جائع .. وأن تسرق اثنين فأنت جشع .. وأن تسرق ثلاثة فأنت لص.



نعم .. أسمعك بوضوح



بعـد أن بلغ عمـرى خمس سنوات ونصف أراد والدى أن يلحقنى بمدرسة «النور» الابتدائية القريبة من بيتنا .. رفض الناظر وأخبر والدى الحاج «عبد الشكور» أننى لم أكمل السن القانونية .. وإن كان لابد فلأنتظم مع زملائى فى فصل المستمعين . ومع أول أيام الدراسة فـوجىء الناظر أن نصف أطفـال القـرية فى فـصل المستمعين فاضطر لفتح عدة فصول أخرى لهم . لم يعد أحـد من المدرسين يهتم بنا.. تعـودنا أن نقرأ بأعيننا ونسـمع بآذاننا .. فالمدرسون يتحدثون ونحن نسـمع فـقط.. لا نتكلم .. لا نتناقش .. لا يسـمح لنا حـتى بالسـؤال . وبمرور الأيام وقرب امتحانات آخر العام لاحظ والدى أن آذانى أصبحت ضخمة وكبيرة وتزداد حجماً يوماً بعد يوم .. أصبحت أذنى كبيرة .. ثقيلة .. مؤلمة .. والأدهى من ذلك أننى لم أعد أتكلم إلا نادراً ..

أصيب والدى بالذعر وأخذنى مهرولاً إلى طبيب الوحدة الذى لم يندهش كثيراً عندما علم بحالتى .. بل أخبر والدى أن كل الأطفال المستمعين بالقرية قد أصيبوا بنفس المشكلة والسبب أن العضو المستخدم ينمو ويكبر والعضو المهمل يضمر ويضعف .

و فى مساء تلك الليلة اجتمع الطبيب مع ناظر المدرسة وكل أهالى القرية .واستقر الرأى بأن ترفع شكوى تطالب بتحقيق المساواة بين هؤلاء الطلاب وزملائهم فى الفصول النظامية .. كما بعث الطبيب إلى المسئولين يشرح لهم الوضع فى القرية ويسأل عن كيفية علاج هؤلاء الأطفال الذين يزداد حجم آذانهم يوماً بعد يوم وقد فقدوا النطق تماماً .

جاء الرد سريعاً بالسماح لهؤلاء الطلاب بدخول الامتحانات ولكن فى فصول خاصة كما جاء الرد بأنه لا يوجد علاج مناسب حتى الآن لهؤلاء الطلاب .. وفى النهاية ذكر المسئولون أن تلك الحالة أصبحت عامة فى كل البلاد.

أصاب هذاالخبر آباء الطلاب النظاميين بالذعر خشية أن يتفشى المرض بين أبنائهم .و بدأوا جميعاً فى الهجرة .. لم يحاول أحد منعهم.

تحولت كل المدارس إلى مدارس للمستمعين ذوى الآذان الضخمة وانتقل جيلنا للكليات ثم للوظائف فى مختلف المجـالات .. ورث أبناؤنا الآذان الضـخـمـة والأفـواه الصامتة . عم الصمت والهدوء كل أرجاء البلاد . فكلنا لا نتكلم ولا ننبس بكلمـة واحـدة وقـد أصـابنا شـبق الاستماع لكننا لا نجد من نستمع إليه.. فالمشكلة قد امتدت إلى كل الدول المجاورة . رفعنا الأعمدة عالياً وزرعنا الأطبـاق فى كل مكان وقـوينا من أجـهـزة الاستقبال حتى جاءنا الصوت واضحاً قوياً يخبرنا بأنه من اليوم لابد أن نسمع جيداً .. الصوت قادم من جهة الغرب .. الصوت يزداد ويعلو . ونحن فقط نستمع .

و نتأمل

ونحلم بغد .



سنة أولى مجتمع

يالقسوة تلك الحرارة على ذلك الطفل الصغير .
فى الشارع الحار المزدحم كادت أرجله الصغيرة القريبة من الأرض أن تخترق أو تذوب مع سواد الأسفلت .. لم تدع حرارة الشمس الفرصة لدموعة أن تمكث كثيراً على وجنتيه المحمرتين .. كانت دموعه تتبخر فى هدوء.. وكلما حاول يائساً أن يرفع إحدى قدميه ليعبر الطريق .. تمر أمامه تلك الآلات الضخمة التى لها أصوات مرعبة فتندفع الدماء فى وجهه النضر وتتسع حدقتا عينيه وتبقى مقلتاه الصغيرتان تتابعان فى خوف .. كانتا تسبحان فى بحور البريق المتجمد .. حاول مرة أخرى ولكن منعته هذه المرة سيارات سوداء مسرعة .. كانت تعوى فى الطريق الذى أغلق لها وحدها .. لم يرغب فى تكرار المحاولة .. فقط تذكر أمه فرفع يده فى الهواء ربما تعبر به الطريق كما كانت تفعل .. ولكن لم يحدث فلا أحد بجواره.

صوت لوقع اقدام قوية تعدو مسرعة تجاهه .. نظر خلفه وجد عشرات من البشر يجرون نحوه .. حاول أن يفعل شيئاً لكنهم كانوا أسرع .. أغمض عينيه ثم فتحهما ليجد نفسه قد عبر الطريق أخيراً.. وبعيداً كان هؤلاء الناس ينحشرون فى صندوق ضخم أحمر له عجلات .. تحرك الصندوق .. امرأة حامل تسقط من فوق الدرجات .. طفل فى مثل عمره يخرج ومعه محافظ مكتظة .. رجل عجوز لا زال يجرى خلف ذلك الصندوق دون يأس .. عاود المشى ودموعه نزيف من اليأس والرجاء .. أخذ ينزوى من شارع إلى آخر ومن حارة إلى أخرى .. ولا دليل فما أصعب الضياع فى الضياع .. أطفال هناك وسط صناديق القمامة .. حدثه عقله الصغير أن يلعب معهم .. لكنهم لا يلعبون .. أحدهم مشغول بسيجارة لها دخان أزرق والآخر يضم شيئاً فوق إصبعه . . والثالث نائم بجوار حقنه.

أرهقه المشى فاستعذب ظلا لجدار لا يحمى من خلفه إلا من أشعة الشمس .. جلس يشاهد .. سيارة كبيرة

تصدم أخرى صغيرة .. خرج صاحب السيارة الصغيرة منفعلاً .. اتجه إلى صاحب السيارة الكبيرة الذى لم ينزل منها .. سمع الطفل صوتاً لفرقعة أقوى من صوت «بمب العيد» .. بعدها تحركت السيارة الكبيرة .. ليظهر صاحب السيارة الصغيرة مفترشاً الأسفلت وبجواره سائل أحمر .. الناس تنظر .. لا تتوقف .. لا تتكلم .. أحدهم رفع إحدى قدميه وهو يمر من فوق رأس الرجل .. والآخر غطاه بالجرائد ورحل .. ضوء الشمس البرتقالى يهدد بالمغيب عن السماء .. ينظر إليها فى رجاء وتوسل .. حبيبات العرق والخوف أصبح لها ملمس بارد على جبينه .. شعر بالجوع .. امتدت يده الصغيرة داخل حقيبته الصغيرة وهو يتابع عصفوراً صغيراً يموج فى الهواء أخرج «سندويتش» المربى الذى سقط من يده على صوت بندقية كانت بين يدى صبى مدلل يقف بإحدى شرفات الفيلا المطلة على الشارع .. يسقط العصفور فى البقعة الحمراء بجوار ذلك الرجل المتمدد على الأرض ، تتسع البقعة الحمراء .. تتسع أكثر .. فأكثر .. يتبخر الجميع!! وفى الظلام لمح ضوءاً

من بدروم أحد المنازل القديمة .. اتجه نحوه وأخذ ينظر من شباك يطل على رجل ضخم وحوله أطفال كثيرون يعطونه محافظ ونقود وساعات وهدايا كثيرة .. كان من بينهم ذلك الطفل الذى نزل من الصندوق الأحمر صباحاً .. التفت ذلك الرجل الضخم بنظرة حادة للشباك وبسرعة صعد درجتين ثم عاد وهو يمسك بالطفل من رقبته بعنف .. أخذ يربطه جيداً ثم أحضر سيفاً طويلاً ووضعه داخل الموقد وهو يقول: سأقطع لسانك وأذنيك .. يصرخ الطفل ويقاوم قيوده .. اقترب الرجل بسيفه .. الطفل يتحرك بقوة ويصرخ .. اقترب الرجل أكثر .. زادت حركة الطفل .. كان يتحرك بقوة بين يدى أمه وهى تردد .. لا تتحرك كثيراً يا إبراهيم دعنى أزرر لك القميص حتى تلحق بميعاد المدرسة لابد أن تنضبط من أول يوم ..

انتفض الطفل كمن دبت فيه الروح من جديد . قبلت الأم طفلها وقالت له : ها قد انتهينا .. هيا اذهب إلى المدرسة .. ولا تنسى ما قلته لك.

حتما نصفك سيموت



بعد أن انتهى من هذه القصة سأقوم فوراً بقطع رأسى حتى لا تكون مضطراً لأن تبصق فى وجهى كلما رأيتنى... اكتشفت تلك الحقيقة عندما أحببت أن أختصر الطريق عائداً من عملى بأن أمر أسفل نفق السكة الحديد .. أصبح النفق منخفضاً حتى أننى انحنيت إلى نصفين وأنا أتدحرج تحته كالجرذ الصغير .. كانت المرة الأولى التى أنظر فيها إلى نفسى كمخلوق حقير .. تذكرت أن هوايتى الوحيدة أن أجلس فى أوقات الفرا غ الممتدة كى أخلط جنونى بالعبقرية بالنساء بالخمر ودخان السجائر فى كأسى الأزرق وأشربه فى رشفة واحدة ثم أقضى الليل كله أسعل وأنا أكتب أفكارى الرثة .. فى كل دقيقة أشتم رائحة الموت تتسلل من بين خلايا جسدى البارد .. تخلط الرائحة بروائح الزنبق وفتيات العشرين والبحار الزرقاء .. أفقد حاسة التمييز فأسد أنفى الضخمة وأتناول فنجان قهوة «على الريحة»

قبل أن ترفع كراسى المأتم ثم أعدو مسرعاً عندما أشعر أن شيئاً ما يطاردنى .. أعدو وأهرول دون أن أنظر إلى الخلف حتي الصباح وقتها يختفى من يطاردنى فأعود إلى البيت .

.. لن تختلف سوياً فأنا عابث . تزداد حالات عبثى كلما كنت جائعاً أو حانقاً أو ثملاً .. لا يهمنى أن أوصف عربيداً أو أوصف شيخاً .. فأنا أعرف جيداً من أكون ! فأنا أنت رغماً عنك.

قالت لى أمى قديماً أننى عندما كنت صغيرا كانت هوايتى خنق القطط بملاءة السرير وإغراق الكلاب فى الترعة وذبح الطيور من مناقيرها .

فى تلك الأيام قالوا لها أننى «ملبوس» وأن علاجى عند الشيخ العارف بالبر الغربى .. قرأ على القرآن فلم يخرج الجن .. قرأ التوراة والإنجيل فلم يحدث شيئاً .. قرأ على الأطلال ثم طردنى أنا وأمى .. من يومها وأنا أشعر أن شبحاً يطاردنى .. إنه أقرب ما يكون من جسدى يقترب منى وأهرول أنزوى بين الشوارع والأزقة

يلتصق بى .. أمر أسفل نفق السكة الحديد إلى البيت .. يختفى و أهدأ أنا وأعود لأخلط جنونى بالعبقرية بالنساء بالخمر ودخان السجائر فى كأسى الأزرق وأشربه فى رشفة واحدة .. ثم أقضى الليل كله أسعل وأنا أكتب أفكارى الرثة.

فى اليوم التالى أسرعت إلى الشيخ العارف .. جلست أمامه .. حدق النظر فى وجهى ثم قال لى .. دعني أراهنك بعمرى أنك ستقضى حزيناً أكثر من نصف ساعتك بل يومك بل عامك.. بل ستقضى حزيناً أكثر من نصف عمرك .. دعنى أراهنك أنك ستفقد فى البداية نصف أحلامك ثم نصف قلبك ثم نصف عقلك ثم ستفقد نصفك .. نصف سيموت قبل أن يدفن النصف الآخر.. ألقيت رداء البقاء وشدوت بأغنية الهجرة .. قتلت كل عقارب ساعاتى و كل الأشياء المصلوبة فوق مساحات الوقت المطوط .. أيقنت أخيراً وأنا أتلقف أنفاسى ألا شيء يطاردنى سوى ظلى الذى سأقتله فى وقت آخر.

كسارة البندق

ذلك الرجل البدين الضخم الذى يتوسط الآخرين فوق المنصة.. اعتاد آن يجتمع بنا هنا .. يحدثنا كثيراً عن المستقبل وقليلاً عن الماضى .. ونادراً ما يتحدث عن الخبز.

كنت أرد فى همس على استفسار من يحاورنى دون آن أنظر إليه فاجأتنى لكمة من الخلف تحت رقبتى .. لم أستدر برأسى بل أكملت هامساً وأنا أبتسم .. «لكننا نحبه ونصدقه» .. ثم انتفضت واقفاً آهتف بصوت عال .. نحبه ونصدقه .. كان الكل يردد ما أقول .. صوت لأعيرة نارية وصوت يقول .. انبطحوا!

سقطنا جميعاً تحت الكراسى وسقطت الكراسى فوقنا.. الخوف والدهشة يقتلانى .. توقف وابل الطلقات ولم يتوقف التحذير .. ارتفعت قليلاً بصدرى عن الأرض

وأخذت أحبوا بين الكراسى .. كان الكل يحبوا .. الكل يتساءل ألن نرفع رؤوسنا قليلاً .. رجل عجوز يعانى من اختناق .. لا وقت لإسعافه .. رجل آخر يتحسس النقود المبعثرة ما بين أرجلنا والكراسى ويجمعها فى نهم .. رجل آخر بجوار امرأة يتحسس شيئاً آخر .. الكل يحبو ويتساءل .. ألن نرفع رؤوسنا قليلاً .. أحدهم يمسك بيديه كتاباً ويقرأ ما فيه ويتمتم لله داعياً .. كنا ندعو خلفه .. حاولت أن أرفع رأسى وأرى ما يحدث .. مر طلق نارى بالقرب من رأسى فعدت مرة أخرى تحت الكراسى .. تحسست شيئاً لزجاً تحت أصابعى .. هذه الدماء كنا ننزفها جميعاً من جرح واحد .. ومع الوقت توقف النزيف .. توقفت الطلقات .. توقف التحذير ولكن لم يتساءل أى منا متى سنرفع رؤوسنا .. فالكل قد تعود أن يبقي فى مأمن تحت الكراسى .. رفعت رأسى أراقب .. لم أجد أحداً ..حاولت أن أقف على قدمى .. لكنهما لم تحملانى وسقطت مرة أخرى .. ومن يومها لم يرفع أى منا رأسه.

حلم الهجرة والبقاء

استلقت فوق السطر الأخير من قصتي .. مدت إحدى قدميها مانعة القلم من كتابة آخر الكلمات معلنة رفضها لهذه النهاية و لكل النهايات .. دائماً ما تقاوم أية محاولة للغوص في أعماقها .. رغم أنها تستحثك كل لحظة لمزيد من الإبحار.. يبدأ المجهول عنده وينتهى فى نقطة واحدة .. أشعر دائمًا وأنا معها كأنها لن تموت أبداً أو أنها ماتت بالفعل منذ كانت فرعونية فهى روح ولت أو روح تستعد للحياة ...

انقضى بعد انتصاف الليل الكثير من الوقت والألم ولم يأت النوم .

القمر محاق الليلة يرسل كسفاً من الظلام للسماء لتتجاوز حدود الأرض إلى شعرها الأسود المنثور بعضه فوق أوراقها المبتلة وبعضه إلى جوار مصباحها النائم إلا عن خيط ضوء بسيط .. تستقر إحدى دموعها فوق

الجرح فتنكأه .. فقد جاء الحبيب بعد سبع سنوات ليعلن أنه لن يكمل .

أقسمت أمامه أنها ستكمل معه أو بدونه .. كانت أمامه صلبة قوية كأشجار السنط..

لا تحاول أن تجبرنى علي قتلك .. تعلم جيداً أننى سأفعل إذا أضطررت .. إذا توقفت عن حماقتك سأتوقف أنا عن جنونى .. لا تنس أننى أقوى منك وأننى سأقهرك فى وقت ما .. فكما تركتك تنمو سأجتثك أيها الطفل العجوز .. فلو تذكرت ما تفعله بكرامتى لحظة واحدة لألقيت بك في المحيط .. هكذا قالت له بعد أن أخبرها بأنهما لازالا مختلفين .. لا شىء في هذه الدنيا يثير دهشتها أكثر من قوله إننا مختلفان .. كانت تقطر دمعاً وهى تذكره فى كل مرة أنها تحمل بذرته هو .. أنا حبلى بعواطفك .. أفكارى تولد من أفكارك .

نسمات الجو البارد تنفذ عبر ظلام النافذة إلى جسدها المتجمد فوق السرير تعلن لها أن الشتاء الثامن بينهما يدق النوافذ والأبواب كضيف ثقيل أوكلص جاء يسرق كل الأمان من الدنيا .. ولا شيء تملكه سوى عد الأيام وطلب الدفء من الذكريات.

أوشك ضوء النهار أن يعلن عن ميلاده المتكرر .. ولا زالت أوراقها التى تكتب عليها كلمة واحدة مستكينة خاضعة يغلبها النعاس .. تنتظر بين الحين والآخر دمعة ساخنة لتغسل وجهها الأبيض .

شيء من الدفء اللذيذ المختلط بضوء النهار يصبغ نصف وجهها الأيمن بلون الحليب .. انتبهت فجأة إلى حركة فى أحشائها .. أطفأت المصباح وهى تجفف دموعها وراحت تكتب فى منتصف الصفحة «آسفة أرفض الإجهاض».



آسفة أرفض الإجهاض



وهج شمسي يلملم أشعته في حقيبة سفر.. و ينثر قبل رحيله الحلم كرنفالاً من الألوان فوق قمم الجبال .. وطيور الهجرة ترحل صوب القبلة .. واستراحة في منتصف الطريق ...

بعد أن استأذنت شياطين المكان أن ألبس عباءة بيضاء في الليل .. رحت أصهل كالخيل وأنا أركل بأقدامي القوارير الخضراء والجماجم الصفراء عبر الطرقات الممتدة من الحفرية الأولى وحتى نخاع العظم .

رحت أدق بالخيام على حدود الأرض .. «من أراد أن يخرج فسيهلك .. ومن ليس له بيت فليسكن خيمة..»

أصبحت كل اللافتات على حدود الأرض تشير إلى بعضها.. لابد أن تدور دورة كاملة حول الأرض في كل مرة إذا أردت أن تنام في خيمتك ليلاً لاخيمة جارك. تراجعت الطيور عن فكرة الهجرة واكتفت بأن تسرق

مسبحتى وغطاء رأسى وبعض أفكارى السخيفة وراحت تعرج إلى كبد السماء .

لم أعد أشعر بسفر الشمس اليومى .. فأنا أدور معها حول الأرض .. احترقت رأسى وخيمتى .. واحترقت كل الخيام.. لا وقت الآن لأن نبحث عن اللؤلؤ فى جـــوف البحر المتخم بالأسماك الزرقاء .

تتصاعد ألسنة النيران من الخيام المحترقة .. ترسم شبحاً لامرأة تصرخ بعد فضيحة .. فالكل يهرول عار .. تتناثر حبات المسبحة فوق الرؤوس والأعين والأقدام.

تهدأ كل النيران لتترك الأرض بلا خيام أو حدود .. تتلاشى المسافة بينهما وبين السماء .. تختلط مياه الأرض بروافد السماء .. يفيض المكان حتى قـــمم الجبال .. رحت أصرخ فى الجميع .. «من أراد أن يبقى فسيهلك .. ومن أراد أن يهاجر فليرحل».

رحل الجميع .. وبقيت أنا فى عباءتى البيضاء مع شياطين المكان على استراحة فى منتصف الطريق.

تحت الكراسى



تمـزق الطريق تحت أقدامهما بينما كانت مطرقة اليـأس تطحن مـا تبـقى من أرصـدة الأمل فى عـقلهـمـا ككسارة البندق.. ثم تلفظه بعيداً ليلعقاه مع ما تبقى من الحب ...

و فى دهليز الصمت المظلم جاشت بالبكاء حينما عجزت قدمـاها أن تحمـلاها خطوة أخـرى لتسقط فوق رمـال سـاخنة .. ارتمى إلى جوارها ينظر فى اتجاه آخر وهو يفرك بين أصابع قدميه بعنف ويقول:

- ماذا بك ؟

- متعبة وجائعة

فــى صوت متحشرج ضـعيف همس وهو يقول كل شىء ضاع وشقاء العمر دمرته القنابل والمدافع .. راحت تمر

بلسانها فوق شفتيها في محاولة لفك تيبسها وهى تقول .. ستة أيام ونحن فى سفر ولا أرى شيئاً غير الرمال والجبال .. سنموت هنا من اليأس والعطش .. صمتت قليلاً ثم قالت وهى تجفف دموعها ..

هل بقى الكثير حتى نعود إلى الوطن؟

نظر إلى الأفق البعيد نظرة محدقة وقال : لم يبق الكثير

أحكمت قبضتها على يديه وهما يسيران فى الشارع حينما كانت تتذكر ما حدث لهما منذ شهور قليلة بعيداً عن الوطن .. كل شىء ضاع فى الغربة .. المال .. الأمان .. الأمل .. والآن لابد أن تبدأ الحياة من جديد.

ولم يكن يرهق بصره كثيراً بالنظر إلى الطوابق العليا فى المبانى العليا وهو يبحث عن شقة تحتضن مشردين.

تمزق الطريق تحت أقدامهما .. بينما كانت مطرقة اليأس تطحن ما تبقى من أرصدة الأمل فى عقلهما ككسارة البندق ثم تلفظه بعيداً ليلعقاه مع ما

تبقى من الحب...

جلست تحت مظلة الأتوبيس فى إحدى الميادين الشهيرة تحـــدق فى الأفق وقد ترقرقت عيناها بالدموع وهي تقول.. هل بقى الكثير حتى نعود إلى الوطن؟

مر بإبهامه ليجفف أول قطرة دمع تسقط من عينيها .

ثلاث لوحات للفراق



آسفة أخطأت الطريق :

رغم تظاهرها بالقوة والثقة إلا أنها لم تستطع أن تخفى من نبراتها ذلك المزيج المر من الضعف والندم حينما كانت تخبره هاتفياً أنها تريد مقابلته الآن .

و هناك كانت فى انتظاره تستعطف كل خلية فى جسدها كى لا تتراجع .

جلس .. لم تلتفت إليه .. كانت عيناها شاخصتين فى مكان ما بين البحر والسماء .. وببطء حركت رأسه تجاهه وهى تقاوم أن تلتقى بعينيه .. أبعدت أصابعها عن كأس الليمون المثلج .. نظرت إلى عينيه بقوة .. تنهدت بعمق .. تعانقت يداهما .. استشعر من بين نظراتها الوداع .. سحابة خوف تحلق فوق المكان .. أحكم قبضته على يديها .. أغرقت عينيها الدموع.. توقف خرير الماء .. توقفت الموسيقى .. خفتت الأضواء

.. خفتت أكثر .. أظلم المكان .. صوت دمعة تسقط فى كأس الليمون .. آخر دمعة . سحبت يديها بشكل سريع .. يداه طليقتان فى الهواء .. وقفت على قدميها .. يسقط الديكور من خلفها .. ضوء بسيط على وجهها.

قالت آسفة أخطأت الطريق

أسدل الستار .. أضيئت الأنوار .. صفق الجمهور.

هو .. متحنط فى موضعه ، هى .. لم يعد لها وجود .

الطابع الأخير:

تهيأ حبيبى .. إنها فرصتى الأخيرة .. إلى اليمين قليلاً .. نعم هكذا .. كما تقف الآن تماماً ، هذه المرة لن أرسم لك لوحة زيتية .. فأنت تقف الآن أمام تلك اللوحة التى اعتدت النشان عليها .. ضع تلك التفاحة فوق رأسك أو عند رقبتك وأنا سأصوب سهمى .. بعدها تستحق أن تتحول صورتك إلى طابع تذكارى نادرٍ أزين به ألبومى ..

كانت تتذكر نهجاً عشقياً كثيراً ما مارسته عندما كانت تدور برأسها تلك الكلمات وهى واقفة أمام المرآة تداعب شفتيها بإحدى خصلات شعرها .. تلملم بقايا أنوثتها من ذكرى المحبين كزهرة تحاول أن تستعيد شذاها من أنوف القاطفين.. استسلمت لذلك الخدر اللذيذ الذى امتدت إليها حينما تذكرت أنه كان دائماً يقل لها أنت أجمل من رأيت ورأرق من سمعت كم كانت تمقت منه إسرافه فى الغزل والغيرة .. وكم كانت تمقت من غيره الصمت .. ومن غيرهما البخل أو التهور أو الضياع أو الصداع .. حتى أعظم الرجال لا يستحقون إلا أن يكونوا مجرد طوابع تذكارية.

انفلت ألبوم طوابعها فتبعثر ما فيه حينما كانت تسحب ساعة الحائط القديمة المفككة .. قامت بتنظيفها وتركيب عقرب الساعات بعد أن فشلت فى أن تجد عقربى الدقائق والثوانى الصغيرين وسط زحام علب الماكياج القديمة والفارغة.. تركت ألبومها مبعثراً على الأرض

وراحت بخطوات ثقيلة تعلق ساعتها بجوار المرآة وقد أغرقت عينيها الدموع .. ينحسر الضوء بعيداً عنها تختفى خلف الكواليس .. أسدل الستار .. أضيئت الأنوار.. صفق الجمهور .. هو .. فى جانب من المسرح يصنع قوساً وسهاماً ، هى...

اللوحة الأخيرة :

جاءت من ماض سحيق تشكو آلاماً فى مفاصل الساقين.. فكثيراً ما أرهقها المشى بين الحفر .. لكنها أبداً لم تكف عن مواصلة نفس المشوار .. إن تعثرها فى ثوبها البالى كان بشيراً بعرى تاريخى جديد .. كانت قطع التاريخ المتناثرة فوق بشرتها توحى بأنها لم تتجاوز العصر الجليدى إلا منذ قليل ، وكأنما هذا الدفء الجديد يعيد صياغتها مرة أخرى .. أصبحت تمقت تماماً ذلك العالم الذى لا يجد التعامل مع أنوثتها ، قديماً كانت تحاول أن تخفى معالم الفتنة فى جسدها فاحدودب ظهرها وتقوست أكتافها .. وتدور

السنون .. وتعبث الأيام فى محفظة التاريخ فتلفظها خاوية .. فالحفر تملؤها أوراق شجر لحلم ربيعى أسقطه الخريف .. والأقدام تميل مع خشخشة الأوراق الصفراء الساقطة بجوار ديدان الأرض . تمتص آلام المفاصل .. تدفعها إلى فكر مجنون .. إنها تبحث عن نقطة الالتقاء بالفراق .. تسعى للالتصاق بالحياة حينما لا يكون على الأرض سوى جنس واحد .. وتكون هى و هو شىء آخر غير الإنسان..

ذابت أحبال المسرح فلم يسدل الستار .. وعلى ما يبدو أن الجمهور قد رحل.

لا تخلع حذاءك



بعـد أن مرت تلك الليلة.. حاول أن يتذكر عنها شيئاً .. أى شىء !! اسمها .. عنوانها أو حتى وصفها .. لا شىء يذكره سوى صوت أنفاسها الدافئة .. ولون قميصها الأسود...

كان الظلام دامساً .. بالكاد استطاع أن يصل إلى السرير الذى توقع مكانه .. اصطدم به .. اهتز السرير بقوة بعد أن سقط فوقه .. أدرك فوراً أنها ترقد بجواره .. فأنفاسها كانت مسموعة دافئة تنبض بالأنوثة .. خلع معطفه وحذائه .. تمدد فوق السرير .. كما تعود يحب أن يبدأ بالكلام .. امتدت يده تشعل سيجارة .

- هل تبدأ .. أم أبدأ أنا؟

كـان فى صوتها من الجدية ما يدفع للتأنى قبل الإجابة

.. نبدأ سوياً ..

مدت يدها لتحركها فى نعومة حول رقبته بينما كانت اليد الأخرى تفكك له أزرار القميص .. عاود إشعال السيجارة التى انطفئت دون أن يدرى ..

– أنت الوحيدة التى تضع الظلام شرطاً لإتمام الليلة ..

مدت يدها الأخرى متوغلة فوق صدره..

– كيف يقولون أنها المرة الأولى لك وأنت بهذه الخبرة والجرأة؟

.. لم ترد عليه بكلمة واحدة .. انتزع يديها من فوق صدره ومن حول ررقبته . وهو يقول:

– أبعديهما عنى إنهما باردتان..

– ألا تصدق أنها المرة الأولى بالنسبة لى .. هـذا لا يهمنى أنا أعطيك مقابل ما دفعت .

– خدعنى دفء أنفاسك ..

- الجسد لك .. والروح لى .. وإلا ...

- وإلا ماذا ؟

- وإلا لن يكون لك عندى أى شىء.

ساد جو من الصمت لثوان . . قال بعدها .

- يبدو أن هذا الظلام يوارى خلفه وجهاً قبيحاً لامرأة جافة .

سمع صوتاً لبكاء وهى تقول فى صوت خافت ..

- بل فتاة تستنزف الحياة بكارتها بقسوة .

رفع معطفه بإصبعه خلف كتفه بعد أن انتزع نفسه من فوق السرير واتجه نحو الباب الذى تذكر بعد أن فتحه أنه نسى أن يلبس حذاءه.

.. التفت للخلف وكان قد نفذ عبر الباب شعاع من الضوء الخافت .. لم يتح له الفرصة أن يرى ملامح وجهها لكنه رآها فى قميصها الأسود العارى .. تدافعته الرغبة .. اندفع الدم فى رأسه .. حملته برودة أطرافه

أن ينهار فوق شفتيها قبل أن يصل إلى حذائه.

بعد أن مرت تلك الليلة .. حاول أن يتذكر عنها شيئاً .. أى شىء !!

اسمها .. عنوانها . . أو حتى أوصافها .. لا شىء يذكره سوى صوت أنفاسها الدافئة .. ولون قميصها الأسود.

سمع صوتاً يقول .. الزواج عفة والتزام .. الزواج عفة والتزام.

بعد أن ابتعد صوت الزغاريد وانتهى .. انفض الجمع إلا هما .. وبعد أن رفع الطرحة البيضاء من فوق وجهها .. قبلها على جبينها ثم أخذها إلى تلك الغرفة التى تنتهى عذرية الحب على سرير فى منتصفها ...

اختفت عنه قليلاً .. ثم عادت ترتدى قميصاً .. أغلقت المصباح .. كان يرقد على سريره فى انتظارها بعد أن خلع عن نفسه معطفه وحذائه .. ارتمت إلى جواره بقوة

اهتز لها السرير ..

حدق النظر فى وجهها .. كان الظلام دامساً .. لم يستشعر وجودها إلا من صوت أنفاسها الدافئة ..

نهش الماضى أفكاره .. إنها نفس الأنفاس .. نفس الدفء والجرأة والقميص الأسود .. أمسك بيدها .. وجد أطرافها باردة!

اقشعر جسده .. اتسعت حدقتا عيناه وهو ينتفض واقفاً.. رفع معطفه بأصابعه خلف كتفه بعد أن انتزع نفسه من فوق السرير.. اتجه نحو الباب الذى تذكر بعد أن فتحه أنه لم يلبس حذاءه..

هذه المرة خرج إلى الشارع حافياً يبحث عن حذاء جديد.



إحذر الطبعة الأولى !!



ينعكس جنون الضوء صوب الشرق البعيد .. يتخافت .. يصنع فجراً نحيلاً .. يندثر نقيق الضفادع والصراصير وتزقزق العصافير .. يمر قطار البضائع محملاً بالأرز والسكر والجرائد .. يحدث صوته أزيزاً فى الزجاج المكسور للنافذة المحكمة الإغلاق.

ينهض جالساً مفتوح العينين فوق السرير المجاور للنافذة.. يتيقن أن الوقت لازال مبكراً .. يعاود الاسترخاء وهو يتثاءب .. أصوات البائعين تتزايد وهم ينظمون «فرشتهم» استعداداً لسوق الأربعاء.

يمد إحدى قدميه إلى الأرض باحثة عن «الشبشب» لتلحقها الأخرى .. يقوم مغمض العينين إلى صنبور الماء فى أحد أركان الحجرة ناسياً أن الصنبور قد مات منذ يومين .. والماء المخزون انتهى بالأمس .. أخذ زجاجة الماء الأخيرة ليغسل وجهه بثلثها ويشرب ثلثها

ويصنع كوباً من الشاى بما بقى فيها. مذيعو البرامج الصباحية يصرون على عبارات التفاؤل والنهار السعيد .. بينما كان يقوم بتثبيت أحد أزرار القميص فى موضعه .. اصطدمت أصابعه تحمل الإبرة «الملضومة» بكوب الشاى الدافىء ليسقط فوق الطاولة .. انسكب الشاى مساء الأمس - الطبعة الأولى - وأغلق المذياع.

أكمل ارتداء ملابسه وخرج إلى الشارع المزدحم بالباعة الجائلين - والحمير والبهائم والبضائع الراكدة .. أدرك قطار السابعة المكتظ بالسلال وحقائب الأطفال والموظفين وبالأنفاس اللاهثة وبرائحة العرق.

انزوى بأحد أركان القطار .. أخرج قلمه والجريدة المطوية وراح ينقل بعض العناوين وأرقام التليفونات إلى الصفحة الأولى .

و فى المدينة الكبيرة أخرج قائمة العنواين .. المسافات متباعدة .. وجولة اليوم لابد أن تثمر .. انتقل زحام

الشوارع فى المدينة الثقيلة إلى كل ثقب فيها .. الباحثون عن العمل أكثر من السكان .. المسافرون أكثر من المقيمين .. الجائعون أكثر من الباحثين عن الطعام.

ما عاد يشعر بالإحباط فى سوق العمل فهو لا يملك سوى شاربه الكثيف والبكالوريوس أما اللغة فهى ضعيفة والكمبيوتر لا يعرف عنه إلا اسمه ... فقط كان يشعر أن أمثاله ليس من حقهم أن يعيشوا إلا فى الصفوف الخلفية .. كان يؤمن بذلك تماماً لكنه لا زال يحاول أن يجد لنفسه ذلك المكان فى تلك الصفوف . ستائر من الدخان الأزرق تفصل بينه وبين الواقفين أمام أبواب تلك المكاتب التى راح يبحث عن عمل فيها .. فى النهاية يأتى من يخبره بأن الإعلان كان فى الطبعة الأولى من الجريدة وقد نفدت منذ مساء الأمس وأن الأمر فى اليوم التالى لابد مختلف.

لم يعد حريصاً على تلميع حذاءه فى تلك الرحلات .. راح يكمل البحث عن عناوين الطبعة الأولى الواحد تلو

الآخر .. كل العناوين تبدلت وتغيرت مثل الأمس وقبل الأمس .. سقطت الجريدة من يده .. لم يلتقطها .. انعكس جنون الضوء صوب الغرب البعيد .. استوحش المكان .. كان الظلام قد أطبق وهو يجلس على أحد كراسى المحطة منكس الرأس ..لم يعد يعرف كم من الوقت مضى وهو جالس .. رفع رأسه ببطء حينما سمع صوت بائع الجرائد وهو ينادى :

أهرام .. أخبار .. جمهورية .

تسلق الأشجار

كـــان لابد أن تترك شرفة منزلها .. فاللحظة الدرامية التى كانت تنتظرها لم تكتمل..

كانت تتابعنى وأنا أصعد شجرة المانجو ذات الأغصان المؤدية لشرفتها .. كم ترانى رائعاً وأنا أصعد تلك الشجرة فأبدو مزروعاً بين أوراقها كإحدى ثمراتها ثم أنشد فيها الشعر ..يحدث هذا كل ليلة .. أصبحت ماهراً فى تسلق الأشجار لكننى يوماً لم أصل إليها .. كانت هى الأخرى كشجرة سنت مزروعة بمنتصف الشرفة..

إنها بيضاء كحليب الليل ..عيناها مشدوهتان بانبلاج النهار .. شفتاها تبرقان فى الظلام مع ضوء القمر كأجمل نجومه .. يطوف بك فرط تأنقها كل بلاد العالم لتعود إليها مرة أخرى بجوار أشجار المانجو .. جدائل شعرهااللامع.

تنساب أمامها اللحظات كلص الزمن .. كأنها خلقت لكل العصور .. وكأن هذا الوجه لن يهرم أبداً ..

لازلت أراقب شرفتها كل ليلة .. لا زال حلمى الأوحد آن تبادلنى الكلمات .. بل كلمة واحدة .. كم تمنيت لو ابتسمت لى مرة واحدة حتى لو كان الثمن نصف عمرى ولكن لا أمل .. أشعر أحياناً أنها لا تنبض أو تتنفس مثل الأخريات .. لا تقف مثلهن .. لا تنظر مثلهن.. ربما لهذا أحببتها .. ربما لهذا لا أشعر بعناء تسلق الأشجار.

كنت أحاول كل ليلة الاقتراب منها أكثر .. أصعد لأقترب من الشرفة أكثر إلى أن جاءت ليلة ذهبت إليها فوجدت الشجرة قد قطعت .. قطعوا كل الأشجار .. نظرت إلى الشرفة لم تكن واقفة .. انقبض صدرى و حدثت نفسى بأن الأمر قد انكشف وربما يعاقبها أهلها .. أسرعت إلى سلم المنزل وقد اتخذت قراراً بأن أتقدم لخطبتها .. كانت المرة الأولى التى أصعد فيها درجات هذا السلم وأطرق الباب.. فتح لى الباب أحدهم وأخبرنى مباشرة

بأن المصنع قد أغلق وبيع كل ما لديهم .. سألته على استحياء عن تلك الفاتنة التى كانت تقف فى الشرفة .. أجابنى أنه لا يعلم وكل العاملين تم تسريحهم وربما وجدتها فى إحدى محلات وسط البلد ... ذابت أقدامى و أنا أتفقد محلات وسط المدينة .. أتفقد كل الشوارع .. كل الفتيات العاملات .. لم أمل البحث يوماً واحداً .. بل كنت أشعر أننى أقترب وأننى سأجدها فى مكان ما له جاذبيتها وجمالها .. رحت أنظر هنا وهناك.. لا واحدة منهن لها نفس البريق .. لا واحدة منهن لها نفس القوام أو الشعر أو الشفتين .

أكملت المسير والبحث .. حتى رأيتها .. انقبض قلبى بل تحرك من مكانه وارتفع يزقزق فوق الأشجار.. اقتربت منها .. اقتربت أكثر .. وقفت أمامها .

كانت تقف خلف زجاج أحد المحلات تحمل في يدها اليسرى حقيبة بينما كان إصبع يدها اليمنى يشير إلى سعر القميص الذى ترتديه.



العزف على قيثارة الجوع

كـــان الفيضـان يأتى كل خريف ثم ينحسر قبل قدوم الشـتاء فنزرع الشعيـر والقمح ثم نحصد ونبيع ونأكل فى الربيع أصبحت كلمة «غداً» شيئاً مستحيلاً .. اتركنى أقترف ذنباً واحداً حينما أنتظر طرقاً على الباب وإلا فاقتلنى قبل أن تأمرنى بألا أحلم !! تعلم جيداً أن حصانى يركض تحت الشمس من أجل أن يحترق لا من أجل قطعة سكر . لا أعرف كم من خريف مر ولم يأت فيضان آخر .. لا بأس من الجوع .. لم أخش يوماً أن أبيت جائعاً - حدث كثيراً - فقط كنت حريصاً أن أبقى على قيد الحـيـاة .. لا دخل لى فيما يزرع الناس أو يحصدون .. أنا خلقت كى أقرأ ..عندما سيهاجمنى الجوع مرة أخرى سألتهم كتاباً أو ربما أكلت أدراج مكتبى الخشبى .. أما الماء فلقد أقسمت ألا أشرب إلا من ماء الفيضان.

إننى أحذرك لن يحتمل أحد صيامى الأبدى .. فلا تفعلوا مثلى.. البعض لم يحتمل الجوع .. أصابهم الإعياء والهزال فسقطوا على رمال الشواطىء صيفاً .. أتاهم الفيضان من البحر المالح ممزوجاً برائحة ساقطات العشرين .. يشربون رضاباً .. يزداد العطش ثم الجوع .. ينحسر الفيضان عنهم ثم يموتون .

امتطيت حصانى وأغريته بكلمة «غداً» حتى يكمل .. كنا جائعين صامدين .. انطلقنا بسرعة الريح .. لم نحترق .. حاولنا أكثر من مرة ولم يحدث ..شعرت بالجوع فالتهمت كتاباً ولم أطعم الحصان شيئاً .. تركنى وهرب.

زوجتى البدينة لا تؤمن إلا باليوم ولا تستسيغ طعماً للأوراق والكتب .. أخبرتنى أنها تريد أن تطعم الصغار خبزاً .. حدثتها عن القمح والفيضان .. قاطعتنى و هى ثائرة:

– اشترى كباب وكفتة!!

إنها لم تتعود أن تتناول ما آكله أنا أو يأكله الصغار ..

أدركت تماماً أن فيضانها يأتى أول كل شهر لتلتهم كل ما معى ثم تبقى جائعة مع انحسار الفيضان حتى أول الشهر القادم. محمومة شوارع الحى ليلاً بالخوف والبرد .. وحصانى مختبىء بإحدى الحارات .. ساقاه النحيلتان ترتعدان من البرد .. نكس رأسه فى الأرض باحثاً عن قطعة سكر .. غدا سأقتله . النسوة فى الحى يتحايلون على الجوع بالحديث عن أسرار البيوت وعن طرق هدمها دون التأثير على المبانى .. تتحرك الرجولة داخل أزواجهن .. يتعاركون .. يأتى فيضان النسوة .. يشعرن بالشبع .. يغلبهن النعاس .. ينام الحى في هدوء . فجر هذا اليوم يموت حصانى ويموت الصغار وينتحر الحلم قبل أن يأتى الفيضان فى الصباح .

- الفهرس -

(صدر من هذه السلسلة)

1	عفيفى جودة	ديوان شعر	ذكرياتى
2	حامد رجب	ديوان شعر	السباحة فى التيار
3	أسماء حمدى ومنال شادى	مجموعة قصصية	مشترك
4	أحمد الصعيدى	ديوان شعر	جبال الكحل
5	على عبد الحميد بدر	ديوان شعر	ليل الماء
6	عماد أبو زيد	قصص قصيرة	وخـــز
7	هيثم الحاج على	ديوان شعر	وجع يفجأ الوقت
8	أحمد مرسال	ديوان شعر	هوامش على دفاتر النساء
9	إيهاب غرابة	قصة قصيرة	العزف على قيثارة الجوع

رقم الإيداع
٢٠٠٠/٧/٥٤

مطابع الولاء الحديثة
شبين الكوم ت: فاكس ٢٢٣٥٩٠١